ميلاد أسماء

مقدمة: تبدأ أحداث هذه القصة قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلّم بأربعة عشر عاما، وكان بعض أهل مكة وجيرانهم من العرب في الجزيرة العربية يعيشون حياة يسودها الجهل وتنتشر فيها العادات السيئة، ولعل أكبر دليل على جهلهم هذه الأصنام المنحوتة من الحجارة التي كانوا يعبدونها ويقدسونها ويقدمون لها القرابين، أما عن العادات السيئة فمن أبرزها: دفن البنات أحياء بعد ولادتهن خوف الفقر والذل، وشرب الخمر ولعب الميسر، وفوق كل ذلك الحروب القبلية التي كانت تقوم بينهم فيُقتل فيها أعداد كبيرة من الشباب وتشتعل نار العداوة والكراهية بينهم، ويستمر مسلسل الثأر لسنوات طويلة، وفي ظل هذه الحياة ولدت "أسماء بنت ابى بكر" فتفرح العائلة كلها بولادتها، الجد والجدة، والأب والأم وهذا الفرح يوضح أن هذه الأسرة تختلف في تفكيرها عن غيرها من كثير من الأسر العربية في مكة التي كانت ترى في ولادة البنات عارا عظيما.

وتحسن الأسرة تربية ابنتها فتنشأ نشأة سليمة تتعلم وتتقن ما يجب على الفتاة أن تتعلمه وتتقنه فيحبها الجميع وتشب سليمة العقل والجسم، ولعل أول درس وأعظمه أنها تعلمت من أبيها ألا تسجد لصنم قط.

حدث سعيد

كان ذلك الميلاد في العام الرابع عشر قبل بعثة النبي ﷺ في بيت من بيوت سادة قريش هو "عبد الله بن أبى قحافة الملقب بأبي بكر" وهو بيت عز ومجد وغنى فقد انشغل أهل هذا البيت العظيم بحدث طارئ.

كانت "قتيلة بنت عبد العزى" زوجة أبى بكر، على وشك وضع مولودها الثاني.

فتحت أبواب البيت الكبير للنساء القريبات والمقربات يدخلن ويخرجن سعيا في قضاء ما تحتاج إليه الولادة.

جاءت قابلات مكة اللائي يقمن بعملية الولادة، وجلسن للتشاور فيما ينبغي عمله حتى يتم الوضع بأقل متاعب، ولم تمض إلا ساعات قليلة حتى وضعت قتيلة طفلتها.

استقبال الأسرة للمولود الجديد

أسرعت أم الخير "سلمى بنت صخر" تبشر ابنها، وقد ملأت عينها منها، ووصفتها له فقالت: يا عبد الله.. بارك الله لك في مولودتك، فسيكون فيها الخير والبركة، إنها طويلة جميلة، وفيها الكثير من ملامحك، فأبشر بها يا أبا بكر.

قال أبو بكر: شكر الله لك يا أماه، وأرجو أن مثلك في صفاتك وأعمالك وأن تجعلك قدوتها ومثلها الأعلى عندما تكبر، فتملأ علينا البيت فرحا وسرورا.

خرجت أم الخير، وجلس أبو بكر يحمد الله، ويشكره على عطيته؛ فهو الذي يهب، وهو الذي يعطي.

ثم دخل والده أبو قحافة، وقد امتلأ وجهه بالسرور قائلاً: عم مساء يا أبا بكر.

-عمت مساء يا أبتاه.

-بم سميت مولودتك يا بُني العزيز؟

-سميتها أسماء يا أبتاه.

-بورك لك فيها يا عبد الله، ولعلك كنت تريد ولداً؟

-والله يا أبتاه ما أردت وما اخترت، وسواء أكانت بنتا أم ولدا فهو من عند الخالق، وليبارك الله لنا فيها، وفى أخيها عبد الله.

تربية وتعليم وتوجيه

فرح أبو بكر بأسماء كثيرا، فقد كانت قوية الجسم، سريعة النمو، وكلما ازداد نموها زاد ذكاؤها، وتفهمها لكل ما تسمع، تحفظه وتردده حتى حفظت الكثير من أشعار العرب ورواياتها، وأخبار العرب وتاريخهم وأنسابهم، فعرفت الكثير منها.

تعلمت من والدها الشجاعة في القول والعمل، والأمانة فقد كان أمينا في تجارته التي جلبت عليه أموالا طائلة، صادقا في حديثه مع الناس فلم يُؤثر عنه أنه كذب مرة ليصل إلى منصب أو جاه، عفّ اللسان فلم يصدر منه ما يسيء إلى إنسان مهما كانت مكانته. وتعلمت منه الرحمة والرفق بالضعفاء، وإطعام الفقراء والمحتاجين، ونجدة المستغيث، والكثير من الصفات الحميدة التي اتصف بها أبو بكر وعرفها الناس فيه.

لِمَ لا يفرح بها وقد أحبته كثيرا؟، كانت تسمعه وتصغي إليه، وتشاركه الحديث، وربما وقفت وراء الباب تنتظر أوبته بنفس متلهفة على لقياه فهو مثلها الأعلى الذي تتأسي به وتقلده في أعماله وكلامه وجلسته، وتتمنى أن تكون مثل أبيها في حياته حتى تكون محل احترام وتقدير من كل الذين يعرفونها.

نشأتها

كانت أسماء منذ طفولتها تشارك الخدم في إعداد الموائد للضيوف الذين لا تخلو منهم قاعة البيت الكبير في يوم من الأيام، سواء كانوا من الفقراء والمساكين أو من القاصدين لأمور التجارة، فقد كان والدها من كبار تجار مكة وكانت تجارته في الأقمشة التي ربح منها مالا كثيرا، أو من الذين يأتون ليفصل بينهم في أمور الديّات التي ولّته قريش القضاء فيها، وكانت تصدقه في كل ما يقول. وكثيرا ما كان يقصده العلماء والنسابون ليزدادوا من علمه.

لقد كانت أسماء ترى كل هؤلاء من بعيد، وربما أنصتت إلى حديثهم مع أبيها، وناقشته فيما سمعت بعد انتهاء المجلس، وأدلت برأيها فيما قيل معتمدة على ما تعلمته من أبيها، واعية لكل ما ذكر.

لقد كانت سعيدة وهي تساعد الخدم في إعداد الموائد للبيت وللضيوف، الذين قلّما تخلو قاعة الطعام الكبيرة منهم، غير متعالية ولا متكبرة. كانت تذهب أحيانا مع أبيها الى البيت الحرام، وتطوف معه، وترى الناس وهم يقابلونه بالبشر والترحاب، فيقتربون منه، ويصافحونه فرحين مسرورين، فتزداد فخرا وتيها به.

قالت أسماء لأبيها وهي تطوف معه بالبيت العتيق: لماذا يحبك الناس كثيرا يا أبتاه؟

قال أبو بكر: لأنني أحبهم، وأقضى حوائجهم.

-يا أبت إنني أراهم يسجدون للأصنام، فلماذا لا تفعل مثلهم؟

قال أبو بكر: إن السجود إنما يكون للإله الذي خلقنا وحدة، وخلق لنا كل شيء، وهذه الأصنام من صنع الناس ولا فائدة ترجى منها.

-حقيقة يا أبتاه، ولكن من الذي علمهم أن يفعلوا ذلك؟

-إنها يا أسماء عادات وتقاليد أخذوها عن آبائهم وأجدادهم دون تفكير سليم. قالت أسماء: أنا مثلك يا أبتاه لن أسجد لصنم أبدا.

إسلامها

مقدمة: كان أبو بكر الصديق والد أسماء أول من أسلم من الرجال، ولسرعة إسلامه أسباب من أهمها:

الصداقة التي كانت تربط بينه وبين محمد ﷺ، والأخلاق الكريمة التي يتمتع بها أبو بكر، واتفاقها مع أخلاق الرسول ﷺ ومع مبادئ الإسلام.

وبما أن أسماء كانت تحب أباها حبا شديدا، وتعجب بأخلاقه الكريمة وصفاته الحميدة، فقد أسرعت إلى الإسلام بمجرد أن علمت بإسلام والدها.

إسلام أبي بكر

كان أبو بكر والد أسماء يعيش بمكة في الحي الذي يعيش فيه "محمد بن عبد الله" مع زوجته "خديجة بنت خويلد" وكان يسمى حي التجار، وقرب الجوار له أكبر الأثر في روابط الصداقة والألفة بين الناس، وقد ربط الجوار بين "محمد ﷺ" وبين "أبي بكر" فجعل منهما صديقين مؤتلفين؛ متقاربين في السن، ومشتركين في العمل وهو التجارة، ومتفقين في البعد عن عادات وتقاليد الجاهلية.

صاحب أبو بكر محمدا، وكان يرى فيه من الصفات مالا يراه فيمن عرف من الرجال، بل لقد كان يدهش من التصرفات التي يتميز بها عن غيره، ويرى أن وراءه سرا يعجز عن معرفته، لذلك حينما بعثه الله برسالته، وطلب محمد ﷺ منه الإيمان بما جاء به من عند الله لم يتردد، ولم يفكر طويلا، بل أسرع إلى التصديق بكل ما جاء به، وزالت عنه الدهشة والحيرة.

قال محمد ﷺ -ما معناه-:

-يا أبا بكر إنك صاحبي، وأنت أول من أبلغه من الرجال ما أمرني به ربي.

-نعم.. إني مستمع إليك، ومصدق لكل ما تقول.

-إن ما أقوله ليس من عندي، وإنما من عند الله -سبحانه وتعالى-.

-نعم إنني أصدقك، وأوقن إيقانا مؤكدا أن ما تقوله هو الحق.

-إنني رسول من الله إلى الناس أجمعين.

-نعم يا رسول الله، وإنك أنت الصادق الأمين.

-إن هذا الأمر سيظل الآن سرا، حتي يأمرنا الله -سبحانه وتعالى- بالجهر به.

قال أبو بكر: نعم يا رسول الله، وأنا معك مؤمن بكل ما تأمر به.

إسلام أسماء

ترك أبو بكر رسول الله، وتوجه إلى بيته، وطرق الباب، فعرفت أسماء أن مَن بالباب أبوها أبو بكر، فأسرعت لتفتح له، وما كاد يراها حتى ابتسم لها وقال: السلام عليكم.

-ما هذا يا أبتاه؟ هل هذه تحية اللقاء؟

-نعم.. إنها تحية الإسلام، وهي تحية اللقاء للمسلمين، فحيثما يلق المسلم أو المسلمة أخا أو أختا يبدأه أو يبدأها بهذه التحية.

-ومَن الذي عرّفك بها؟

-محمد بن عبد الله ﷺ.. فقد أرسله الله -سبحانه وتعالى -.

-محمد بن عبد الله صاحبك الأمين، وبم أرسله الله؟!

قال أبو بكر: أرسله الله ليعلم الناس أنه -سبحانه وتعالى -هو الخالق وحده للكون، وأنه هو المخصوص بالعبادة، وأن يتركوا عبادة الأصنام، وأن يصدقوا رسوله في كل ما يدعو إليه.

قالت أسماء: يا أبت إنني أسلمت وآمنت بكل ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ من عند الله -تعالي -وأمره به.

-قولي يا أسماء: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، سأقولها في كل وقت بالليل والنهار، وفي السر والعلن. ولكن قولي لي يا أبت: ما رد تحية الإسلام؟

-رد هذه التحية: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

لقاء مع حبيب الله

ما كادت أسماء تخلو بنفسها، إلا وتفكر في الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ من عند ربه، وتتشوق الي معرفة المزيد من هذا الدين، وكيف تستطيع أن تعبد الله؟ وهل سيؤمن به كل الناس في مكة؟ إنها تريد مزيدا وبيانا لكل ما يجول في نفسها! وبينما أسماء غارقة في تفكيرها، سمعت دق الباب، فاتجهت إليه لترى من الطارق، وما كادت تفتح حتى وجدت نفسها أمام رسول الله ﷺ وتلقته فرحة مسرورة، ثم سارت معه حيث يجلس أبوها أبو بكر.

قام أبو بكر ليجلس رسول الله ﷺ وقد رحب به، وتحدث إليه، ثم أقبلت أسماء وحيّت رسول الله ﷺ ثم قالت: يا رسول الله إنني أمنت بكل ما جئت به.

ابتسم لها النبي ﷺ ثم سألها متلطفا: بأي شيء جئت يا أسماء؟

قالت أسماء: قال لي أبي إنك جئت برسالة من عند الله -تعالي -بأنه واحد لا شريك له، وأنه أرسلك إلى جميع الناس لتعلمهم ذلك، وأنه هو الذي يُعبد وحده وأنه يأمر بالخير وينهي عن الشر، وعن الإساءة إلى الناس وأن الجنة في الأخرة لمن استقام وخاف من العقاب، وأن النار لمن أشرك وكفر وظلم الخلق.

-بارك الله فيك يا أسماء. ولكن تعاهدينني على الطاعة لله ولرسوله في كل ما يأمر به؟

-نعم يا رسول الله أعاهدك وأعاهد الله -تعالى -على الطاعة لكل ما تأمر به والعبادة لله وحده.

دعا لها رسول الله ﷺ بأن يقوي إيمانها ويثبتها علي الحق، وأن يضاعف لها الثواب والأجر في الدنيا والأخرة.

لقاء الإيمان

مقدمة: ضربت أسماء المثل للفتاة المؤمنة، فهي تتعلم من أبيها ومن الرسول ﷺ وهي تعمل بما تتعلمه، وهي مؤمنة إيجابية، تشارك المؤمنين أفراحهم وأحزانهم وتسأل عنهم، وتقدم كل ما تقدر عليه، وهي ترضي ربها ودينها فرضي الله عنها وحقق ما تصبو إليه..

أسماء على الطريق الصحيح

اتبعت أسماء كل ما جاء به رسول الله ﷺ وعلمت به فنفذت ما يدعو إليه الإسلام، كانت تنتظر والدها حتى يعود إلى البيت، ليخبرها بأحوال الرسول ﷺ وأحوال المسلمين، وبما يجري بينهم وبين المشركين من قريش الذين وقفو ضد الدعوة، وآذوا رسول الله ﷺ والمسلمين معه، كان يلقّنها كل ما سمع من الرسول من أحاديث وما نزل عليه من آيات وسور القرآن الكريم، ولم تكتف بذلك بل كانت تذهب متخفية مع المسلمات الى دار "الأرقم بن أبي الأرقم"، تلك الدار التي كان يذهب إليها المسلمون والمسلمات متخفين في أول الدعوة للاجتماع بالرسول ﷺ والاستماع إلى ما نزل به جبريل -عليه السلام- من آي الذكر الحكيم، وما يأمره به ربه سبحانه وتعالى.

كانت تلتقي بمن أسلمن من النساء، لتتعرف ما يصيب المسلمين من الأذى، وتهتم بأخبار أبيها، والذين يترددون على بيته ومنهم: "عثمان بن عفان" و"عبد الرحمن بن عوف" و"سعد بن أبي وقاص" و"الزبير بن العوام"، وكانت شديدة الإعجاب بقوة إيمان الزبير وصبره على تحمل الأذى، ودفاعه عن عقيدته.

قوة الإيمان

كان عم الزبير رجلا كافرا شديد الكفر غليظ القلب، يحقد على ابن أخيه الزبير من يوم أن رآه يتبع محمدا، ويؤمن بدعوته.

قال له العم يوما:

-بلغني أنك اتبعت دين محمد "وكان الزبير خامس خمسة أسلموا لله رب العالمين، وكان فتى في الخامسة عشرة من عمره".

قال الزبير: نعم أسلمت لله رب العالمين.

-دعك من هذا – يا بني – وعُد إلى دين قومك فهو خير وأفضل.

-لن أعود... وافعل ما تشاء.

لقد أثرت في نفس العم هذه الإجابة واشتد غيظه وقرر أن ينتقم من الزبير، فأمسكه وقيد يديه ورجليه بالحبال ولفه في حصير، وعلّقه على الحائط وأوقد تحته نارا فاندلعت ألسنة الدخان إلى رأس الزبير، ونفذت إلى عينيه، فسالت منها الدموع، وكاد الدخان أن يكتم أنفاسه، فأحس الزبير ضيقا شديدا وكاد أن يغمى عليه ويفقد صوابه، ولكنه صبر على هذا البلاء، وتحمل العذاب الشديد ولم يقلل من إيمانه وعقيدته، وكانت كلمة التوحيد لا تفارق شفتيه.

طلب منه عمه أن يعود إلى دين قومه ولكنه أخبره أنه لن يعود إلى الكفر أبدا، ولو قطعه إربا إربا.

لقد علم أن عذاب الزبير لن يرجعه عن إيمانه بما جاء به رسول الله ﷺ فملّ من تعذيبه ويئس من رجوعه، ففك عقاله وتركه وشأنه.

إعجاب في الله

كانت أسماء تتتبع أخبار الزبير، وقد أعجبت بإيمانه، وصبره على الأذى، وثباته على عقيدته، وإخلاصه لدينه، فحزنت لأجل ما يلقاه من عذاب، ودمعت عيناها رحمة به وشفقة عليه.

دخل عليها أبو بكر فوجد الحزن باديا على وجهها، وآثار الدموع في عينيها فسألها، ما هذه الدموع يا أسماء؟

-دموع من أجل الله.. ومن أجل العذاب الذي يلقاه المسلمون الذين اتبعوا الدين الحق وآمنوا بما جاء به رسول الله ﷺ.

-ومن تقصدين منهم؟

-أقصد "الزبير بن العوام" صاحبك، وما يلقاه من عمه ومن أهله.

-"الزبير بن العوام".. لا تحزني فسوف أكافئه على صبره وإيمانه.

قالت أسماء: هل ستعطيه مالا يتاجر به يا أبتاه فقد علمت أنه معدم؟

-نعم يا بنيتي العزيزة، وأعطيه -أيضا- ما هو أغلى من المال –إن شاء الله-.

إرادة الله

إن أسماء أصبحت في سن تصلح للزواج، ولابد من اختيار زوج لها، وإن حديثها عن الزبير يغري أبا بكر بالكلام معه في أمرها، وليس عيبا أن يختار الأب الانسان الصالح لابنته، ولا مانع من أن يبدأ الحديث معه، وإن كان الزبير واحدا من المقربين إلى أبي بكر ولكن كيف يبدأ الحديث؟ هل يفاجئه بالموضوع؟ أو يلمّح له من بعيد؟ وبينما أبو بكر يخطط لبدء الحديث معه إذ دخل على أبي بكر في قاعة الضيوف جماعة من المقربين، وفيهم ابن العوام، كان حديثهم في شأن الدعوة وما يلقاه المسلمون من إيذاء المشركين لهم، وفيما نزل حديثا من القرآن، ولما هم الجماعة بالانصراف، استأذن الزبير، واستسمح القوم أن يبقى وقتا مع أبي بكر، ثم اقترب منه وقال له: يا أبا بكر. جئتك في أمر.

-إن شاء الله يكون خيرا.

-هو الخير كله إن شاء الله جئتك أطلب منك يد ابنتك "أسماء" لنفسي.

سكت أبو بكر، وأطرق إلى الأرض، ومرّ بخاطره ما كان يفكر فيه منذ قليل، ثم حدث نفسه قائلا: والله إنه لمن صنع الله، والله إنه لمن صنع الله!!

قال أبو بكر لابن العوام: انتظرني لحظات.

دخل على أسماء، وأخذها جانبا وهمس في أذنيها بكلمات احمر لها وجه أسماء، وأطرقت إلى الأرض حياء، ولم تتكلم، فضمها الوالد الى صدره ثم عاد الى الزبير وقال:

-وافقنا على الخطبة.. على بركة الله.

.زواج أسماء والزبير

سرى الخبر في مكة.. بموافقة أبي بكر على زواج الزبير من أسماء وباركه رسول الله ﷺ فأم الزبير عمته، و"العوام بن خويلد" أخو السيدة خديجة زوج النبي ﷺ، وهذا الزواج فيه تقوية الصلة بين المسلمين الاوائل فالزبير أسلم وله من العمر خمس عشرة سنة، وكان - رضي الله عنه – خامس من أسلم، وأسماء أسلمت ولم تتجاوز الرابعة عشرة من العمر، وكان ترتيبها من الذين دخلوا الإسلام السابعة عشرة من بين الرجال والنساء. تعجب المشركون من موافقة أبي بكر على هذا الزواج، ونسوا أن الإسلام حطم الفوارق بين الناس، وجعل مبدأ الإيمان والتقوى فوق كل المبادئ الدنيوية.

وجاء موعد الزواج، وفرح النبي والمسلمون وهنأ بعضهم بعضا، فالإسلام قضى على عادات وتقاليد الجاهلية.

اجتمع أهل مكة في بيت أبي بكر، وأقيمت الموائد، وضربت الدفوف وغنّت الجواري، ودعا الجميع للعروسين بالرفاء والبنين.

ثم ذهبت أسماء مع زوجها الى بيته والفرح يملأ قلبيهما، وكان هذا من تدبير العلي القدير.

في بيت الزوجية

بدأت أسماء حياتها الزوجية في مكة، فانتقلت إلى بيت الزبير، وكان فقيرا فلم يكن في بيته إلا فراش ووسادة من ليف وحشية، فيها مثل ما في الوسادة، وقربة من الجلد للشرب والاغتسال، ولكنها كانت راضية سعيدة، لأنها اجتمعت مع الزبير على الإسلام، فلم تضجر من حياتها، ولم تكلف زوجها بما لا يطيق، فكانت متعاونة تهيئ له أسباب الراحة، وتشاركه في العبادة، وحفظ ما ينزل من القرآن.

لقد أعطى الإسلام للزبير دفعة قوية نحو العمل والجهد والاجتهاد، فما كاد يستقر في بيت الزوجية حتى سافر في تجارة إلى الشام.

هجرة الرسول

مقدمة: يتناول هذا الفصل حادث هجرة الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر إلى المدينة، وهو من أعظم أحداث التاريخ، وكان أبطاله الرسول ﷺ وأبا بكر وأسماء وعبد الله بن أبي بكر، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أريقط تؤيدهم جميعا عناية الله ورعايته، ولقد نجحت الهجرة بفضل عناية الله ورعايته وتوفيقه، وبفضل الإعداد الجيد المتقن الذي وضعه الرسول ﷺ وأبو بكر –رضي الله عنه-.

الزيارة المفاجئة

ترك الزبير زوجته أسماء، ليذهب بتجارة إلى الشام، وانتقلت أسماء إلى بيت أبيها، لتكون مع أخيها عبد الله وأختها الصغيرة عائشة وأم رومان زوجة أبيها.. وفى يوم كانت أسماء وأختها عائشة تجلسان قريبا من سرير أبى بكر، وإذا الباب يدق، فأسرعت أسماء لتفتح، ولترى من الطارق؟ فإذا به رسول الله ﷺ.

كان وقت الظهيرة، ولم يكن ﷺ متعودا أن يأتي في مثل هذا الوقت، وفكّر أهل بيت أبي بكر في أن أمرا عظيما قد وقع.

سلم رسول الله، واستأذن في الدخول، وقابل أبا بكر الذي أسرع في القيام من مكانه ليجلس الرسول، ثم قال ﷺ لأبي بكر:

-يا أبا بكر أخرجْ مَن عندك.

-بأبي أنت وأمي يا رسول الله إنما هم أهلي، إنهما أسماء وعائشة.

-يا أبا بكر، فإني قد أُذِن لي في الخروج والهجرة.

-أنا معك، الصحبة يا رسول الله.

-نعم الصحبة يا أبا بكر.

-تأخذ أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين.

- نعم -يا أبا بكر -سآخذها بالثمن.

مؤامرة الفاشلة

يئس المشركون من إثناء محمد عن دينه، فقرروا التخلص منه قبل أن يستشري خطره، فاختاروا من كل قبيلة فتى قويا لمحاصرة بيت محمد بالليل وقتله، وبذلك يتفرق دمه بين القبائل، ويعجز قومه "بني هاشم" عن مواجهة قريش كلها للثأر.

وأخبر الله رسوله ﷺ بما اتفق عليه كفار مكة، فطلب من علي بن أبي طالب أن ينام مكانه، وأن يتغطى ببرده الأخضر الحضرمي، كان المجتمعون ينظرون من ثقب الباب، فيرون النائم، فيطمئنون أن محمدا ما يزال نائما مكانه، ولكن النبي ﷺ خرج من بين صفوفهم وهم لا يشعرون.

وكانت أسماء تقوم بواجبها من وقت أن علمت بالسفر، فأحضرت ما يحتاج إليه المسافران، ثم وصل رسول الله إلي بيت أبي بكر في الثلث الأخير من الليل، وكانت أسماء أعدت لهما كل شيء.

خرج الرسول وصاحبه من خوخة في ظهر بيت أبي بكر متجهَيْن جنوبا إلى طريق اليمن حيث وصلا إلى غار "ثور".

وأطل نور الصباح والمشركون ينتظرون أن يقوم النائم، وما أعظم دهشتهم حينما رأوا أن النائم ليس محمدا، وإنما هو "على بن أبي طالب"!!

نظر بعضهم إلي بعض في دهشة واستغراب، فبعضهم يقسم أنه رآه وهو يتغطى بالرداء، وبعضهم سخر من كبار القوم من قريش، ولم يمض إلا وقت قصير حتى كان خبر نجاة محمد قد انتشر في أرجاء مكة.

عزيمة قوية وحسن تصرف

ثار المشركون، وراحوا يتخبطون في الطرقات، واتجه أبو جهل أشد أعداء المسلمين، وصاحب فكرة القتل، وتوزيع الدية علي القبائل إلي دار أبي بكر ومعه جماعته فهو يعرف الصلة القوية التي بين أبي بكر ومحمد بن عبد الله، طرق الباب، فاقتربت أسماء، ثم نادت: من يكون الطارق؟

قال أبو جهل بصوت عال: افتحي يا بنت أبي بكر.

فتحت أسماء الباب:

-أين أبوك؟

-أبي.. خرج من البيت.

-متى خرج؟

-لا أدري وقت خروجه.

-إلي أين سار؟

-لا أعرف مكانه.

لم يملك أبو جهل نفسه من شدة الغيظ، فهوى علي وجه أسماء بيده القوية ولطمها على وجهها لطمه وصلت إلى أذنها فشقتها وسقط القرط منها، وقد تخضب وجهها بالدماء.

وقفت ثابتة لم تتزحزح رغم ما تعانيه من شدة الضربة، أما أبو جهل فقد انسحب في خزي وعار، وقد لامه أهل مكة علي ضربه لأسماء من غير ذنب جنته.

ولم تكد أسماء تستريح مما لاقته من عدو الله أبي جهل، حتى طرق الباب طارق آخر، وما كادت أسماء تقترب من الباب، حتى سمعت صوت جدها أبي قحافه، ففتحت الباب، ودخل الجد وهو مشغول بما وصل إلي أذنه مما تناقلته الأخبار عن اختفاء رسول الله وناجته مما اتفق عليه المشركون من قتله والتخلص منه.

قال في لهفة: أين أبوك يا أسماء؟

-أبي - يا جداه - هاجر إلي ربه.

-وما الذي دعاه – يا أسماء – إلي ذلك؟

-الذي دعاه إلي ذلك – يا جداه – الصحبة لرسول الله ﷺ.

-الناس تقول: إنه أعطى كل ماله لمحمد.

-أبدا – يا جداه – لقد ترك لنا خيرا كثيرا.

-أريني – يا أسماء – هذا الخير الكثير.

جمعت أسماء وساعدتها أختها عائشة حصوات من فناء البيت، ولفتها في قطعة من القماش، ووضعتها في الكوة، ثم سحبت جدها وكان قد فقد بصره، فلمس بيده ما وضع في الكوة، وأسماء تقول: أليس كثيرا يا جداه؟

-الآن قد استراحت نفسي يا أسماء.

دور أسماء ذات النطاقين

عرفت أسماء المكان الذي انتهى إليه الصاحبان، وهو غار ثور، فكانت تأتي إليه ليلا بالطعام والشراب، يصحبها أخوها عبد الله، وقد كلفه أبوه بتتبع المشركين لمعرفة أخبارهم، وما يقومون به من عمل تجاه البحث عن رسول الله.

بقى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام بلياليها، وفي الليلة الأخيرة صنعت أسماء سفرة فيها شاة مطبوخة ومعها سقاء الماء، وذهبت بهما مع أخيها إلى الغار، حتى إذا دنا وقت الرحيل وقفت أسماء تساعد في ربط الأشياء، أرادت أن تعلق السفرة والسقاء، ولم تجد ما تربط به، وبحثت فلم تعثر على ما تريد، ففكت نطاقها وشقته نصفين، ربطت بأحدهما السفرة وبالآخر السقاء، رآها رسول الله ﷺ وهى تفعل ذلك، فقال لها: "أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة ".

ومنذ ذلك الحين سميت أسماء بنت أبي بكر بذات النطاقين.

دور عامر بن فهيرة

كان عامر بن فهيرة يرعى غنم أبي بكر، وكان يخرج في الصباح المبكر بالغنم ليطمس بأرجل الغنم معالم آثار أقدام أسماء وأخيها، حتى لا يراها كفار مكة الذين يبحثون عن الرسول ﷺ وأبي بكر، فيعرفوا مكانهما ويذهب باللبن إلي الغار ليشرب منه الرسول ﷺ وأبو بكر.

دور عبد الله بن أريقط

جاء عبد الله بن أريقط، الدليل الذي سيقود الركب، وهو على معرفة بالطريق، وكان على صلة وثيقة بأبي بكر، واستعدوا للرحيل، وقف النبي ﷺ رافعا يده إلى السماء يناجى ربه – سبحانه وتعالى -، ويدعوه بما يشاء يطلب منه العون والمساعدة، وأن يحفظه ومن معه من شر الأعداء وعثرات الطريق، ثم يتلو آيات من كتاب الله مما أنزل عليه.

وداع الأحبة

وقفت أسماء لتودع رسول الله ﷺ، وقفت أمامه، وقالت: في حفظ الله ورعايته وهو خير الحافظين، ثم اقتربت من أبيها، وسلمت عليه، وقبلته في جبينه، وغبطته علي صحبته للنبي ﷺ، ودعت له بالتوفيق في رحلته... ثم وقفت مع أخيها يراقبان الركب، حتى غاب في الطريق الطويل المتعرج، آخذين وجهتهم إلي يثرب.

عادت أسماء مع أخيها، وقد بدا عليهما شيء من القلق والحزن، وسادهما الصمت، ولكن عبد الله أراد أن يقطع هذا الصمت فقال: والله يا أسماء إني خائف علي أبي بكر ورسول الله.

-ولكنني يا عبد الله – أخاف علي رسول الله أكثر، لأن الدعوة إلى الإسلام لا تتم إلا به.

-نعم أنت يا أختاه على صواب، وتفكيرك أنضج من تفكيري،

وإنني أوافقك على ما تقولين.

وأكملت أسماء قولها: لكن يا أخي مما يطمئنني، وترتاح له نفسي أن الله هو الذي أرسله برسالته وهو الذي أمره بالخروج للهجرة، وأنه – سبحانه وتعالى – حافظه وراعيه، وحافظ من معه لإتمام الدعوة، ونشر الإسلام في كل أرجاء هذه الدنيا الكبيرة.

-هذا – والله – حق يا أسماء.

قالت أسماء: ندعو الله أن نلحق بالنبي وبالمسلمين في يثرب.

قال عبد الله: إن شاء الله سوف نلحق بهم.